

المبحث الثالث : الأبعاد الإنسانية والفلسفية لرسالة حي بن يقظان لابن طفيل :

توطئة:

تعد قصة حي بن يقظان احد أهم منابع الفكر الفلسفي الإسلامي بشكل عام والأندلسي بشكل خاص , إذ أخذت حيزها الخاص من فلسفات القرون الوسطى والحديثة وحتى المعاصرة , وذلك لاحتوائها على مضامين فلسفية عميقة , واشتمالها على موارد عديدة بمحاكاة مختلف الموضوعات كالفلسفية منها , والتي تم توظيف معانيها بأسلوب أدبي مشوق من العامة والمهتمين بالفلسفة والمتخصصين وهي أيضا تقدم نظرة جديدة عن العلاقة بين الحس السليم والملاحظة والتجربة والتفكير المجرد.

فبعد متابعة الحبك الأدبي لرائعة ابن طفيل يظهر للقارئ ما ترصده القصة من دلالات معرفية كرصدها للعلاقة بين الفلسفة والدين والعقل والشريعة كما ترصد للعديد من الرموز التي تشغل فكر الإنسان وقد تؤثر على حياته كرمزية الوحدة أو العزلة والانفراد إلى غير ذلك ... ووصولاً إلى أمور الفكر كالتأمل والتدبر وفعالية الاستكشاف وذلك وفق رحلة البحث عن الذات والكون .

من خلال هذا وبعد التحليل لرسالة حي بن يقظان تظهر العلامات الاستفهامية وراء صياغة خيوط هذه القصة ... فما هي أهم الأبعاد الإنسانية والفلسفية للقصة ؟ وفيما تتمثل الخلفيات التربوية التي كان يشير إليها ابن طفيل من خلال كتابته لرسالة حي بن يقظان ؟

(1) الخلفيات التي حوتها قصة حي بن يقظان:

من بين ما يستعمله الكتاب والفلاسفة في كتابة أفكارهم و استحضار مواقفهم يحتم استعمال أساليب فنية كاستحضار عالم الخيال أو الرمز لعرض الأفكار الفلسفية أو للتعبير عنها في قالب فني من الأساليب التي عهدتها الفلسفة منذ نشأتها.

وفي ذلك أمثلة لا تحصى فيها على سبيل الذكر " استخدام أفلاطون للترهات الإغريقية وللأساطير إطارا أو على سبيل الاستشهاد في محاوراته مع طيماوس وكريتياس من الشعر وتشوانغ ترو من القصص قوالب لعرض الفلسفة الطاوية , وهنا لا بد من التنويه بما وصلت إليه العناية بالقالب الفني جماليا وتقنيا لدى ابن سينا في قصيدة النفس ، والمعري في رسالة الغفران، بحيث وصلت هذه الأعمال فنيا إلى المستوى الفني الراقى فلسفيا حتى كانت قصة حي ابن يقظان القمة , ولا شك أن المقومات التي نشأت وقامت عليها القصص الفلسفية الأوروبية ابتداء من القرن الثامن عشر حتى اليوم من "فولتير (Voltaire) و روسو (Rousseau) و سارتر (Sartre) و كامو (Camus) وغيرهم مثلا تنتمي إلى تلك المقومات التي حُبكت عليها قصة حي بن يقظان"¹.

والسؤال الذي يطرح نفسه بعد ما تقدم هو هل أن للعمل الفني الطاقة في التعبير عن الفكر الفلسفي لصاحبه ؟ الجواب على هذا السؤال هو ما ردت به سيمون دي بوفوار* على أولئك الذين يرفضون اعتماد العمل الفني للتعبير عن أفكارهم ومواقفهم الفلسفية فاعتبرتهم يفضلون الماهية على الوجود، ويحتقرون المظهر بوصفه دون الحقيقة المشتركة .

¹ - الأبعاد الفلسفية لقصة حي بن يقظان , أنور أبو بندورة , ديوان العرب , الموقع : منبر حر للثقافة والفكر والأدب ت م 07- يونيو 2006 <https://www.diwanalarab.com/> تم إطلاع 16/04/2020 15:55

* سيمون إرنستين، لوسي ماري برتراند دي بوفوار، تدعى سيمون دي بوفوار 1908-1986 كاتبة ومفكرة فرنسية، وفيلسوفه وجودية 0000000000 وناشطة سياسية، ونسويه إضافة إلى أنها منظرة اجتماعية. ورغم أنها لا تعتبر نفسها فيلسوفه إلا أن لها تأثير ملحوظ في التسوية والوجودية التسوية.

(2) فلسفة ابن طفيل من خلال القصة :

• من الطبيعة إلى ما وراء الطبيعة

استخدم ابن طفيل في عرضه فن القصة ، بعدما تنبه منذ قرون عديدة إلى ما يمكن أن يؤديه الفن في التعبير عن فكره الفلسفي، فكان نتاجا إلى ذلك قصة حي بن يقظان التي قدمت لنا فكر ابن طفيل الفلسفي، فصرنا أمام سيرة للمعرفة الإنسانية.

• من العزلة إلى المعرفة

" في سيرة المعرفة الإنسانية تلك التي يعرضها كتاب حي بن يقظان تلفت نظرنا في نشأتها تلك البيئة، ونعني بها العزلة عن الناس، التي يعيشها نموذج هذه السيرة ، وسرعان ما يتكشف لنا أن حياً أخذ يغالب هذه العزلة بطلب المعرفة، فطلب المعرفة وسيلة من وسائل التغلب على العزلة، إذ تدفعنا المعرفة إلى الانصراف عن عزلتنا المركزة في ذاتنا، وتقلنا إلى مكان آخر وزمان آخر، حيث نتصل بالذات الأخرى، فهي فرار من العزلة ومخرج لمعرفة أنا أخرى وعن طريق المعرفة يخرج الإنسان من توحده، ويتوقف عن الحياة في نفسه لنفسه. وليس من الممكن أن نتجاهل الجانب الاجتماعي للمعرفة إذ أنها تساعد على إقامة الاتصال بين الناس، فإن كل محمولاتها وكل منطقتها الجماعي وجهازها المنطقي من تصورات ولغة ومعايير وقوانين كلها اجتماعية ¹.

(3) أساليب المعرفة عن ابن طفيل من خلال قصة حي بن يقظان :

أ- النظر والمراقبة :

يكاد النظر والمراقبة والملاحظة تجتمع معاً، ذلك أن حياً كان "ينظر إلى جميع الحيوانات" "وكان يرى أحياء الوحوش تتحامى ميتها وتفتر عنه". كل هذه الاقتباسات وأخرى تدل على اجتماع النظر والمراقبة والملاحظة.

¹ الأبعاد الفلسفية لقصة حي بن يقظان ، أنور أبو بندورة م.س ص.6

ب - الاكتشاف والصدفة :

أما المعرفة عن طريق الاكتشاف أو الصدفة، فبمضى حي (قيامه بتشريح الطيبة) يكتشف حي ما في داخل الطيبة من أعضاء داخلية وصفاتها ووظائفها، وقد يجتمع الاكتشاف مع الصدفة فيأتي نتيجة لها.

ج - المحاكاة

أما المحاكاة وهي من نتائج النظر والمراقبة والملاحظة، فقد باشرها حي منذ طفولته مقلداً الحيوانات والطيور في دفاعها وكسائها فيتخذ له بدل قرونها وأنيابها عصياً وبدل وبرها كساء من أوراق الشجر أو من ريش الطير. وعندما يشرح الطيبة يدفنها تقليداً للطير في دفن موتاه¹.

د - الحاجة:

أما الحاجة فكانت تدفع بحي إلى المعرفة بين الحين والحين. فحاجة حي لاتقاء البرد وللحماية دفعته إلى تقليد الحيوان في كسائه ودفاعه عن نفسه. "واهتدى إلى البناء بما رأى من فعل الخطاطيف.. فاتخذ مخزناً وبيتاً لفضلة غذائه.

ط - التجربة : أما التجربة والاختبار فيتجلبان في مواضيع عدة، منها تشريح حي للطيبة، ثم اختباره لقوة النار².

ك - المقارنة والقياس والاستنتاج:

"والمقارنة والقياس والاستنتاج هي نتاج ما تقدم من سبل وأسباب مجتمعة أو منفردة بنتيجة تجربة حي في تشريح الحيوان يستنتج حي وجود روح حيواني في أجزاء الجسم المختلفة، ويتبين له اختلاف الأشياء بصفات واشتراكها أو اتفاقها في صفات أخرى من خلال

¹ الأبعاد الفلسفية لقصة حي بن يقظان ، أنور أبو بندورة م س ص 7.

² نفسه ص 7.

تصفحه الأجسام. ثم يتوصل حي بالقياس والمقارنة إلى طبيعة المادة وتركيب الأجسام من هيولي وصورة حتى إذا تأتي له ذلك خلص إلى أن الفساد مُحدثٌ للصورة وهكذا حتى آخر أدوار حياته قبل لقائه بأسال.

ع- الحدس :

أما الحدس فهو طريق حي لمعرفة ما هو غير محسوس عن طريق ذاته، ويأتي هذا الحدس دوماً مرتبطاً أو ناتجاً عن أسباب ومصادر. فوجود العالم هو الذي جعل حي يحدس بوجود قوة أقوى ذلك أن "كل حادث لا بد له من مُحدث" ¹.

"بقي السبيل إلى السعادة وهو في دوام المشاهدة للموجود أمامه ويتسنى ذلك بالمشاهدة الصرف والاستغراق الكامل بوجه من الوجوه أو بشيء من الأشياء إذاً فالمعرفة، لا بد أن تكون مكتسبة، وليست مخلوقة مع الإنسان. وهذه المعرفة لا تقف عند حد، فهي تتطور وتترج. فحي يرتقي في المعرفة عن طريق الحواس والتجربة إلى المعرفة العقلية القائمة على الاستنتاج من التجربة في عالم الأرض إلى التأمل في السماء والعالم بأسره خروجاً من الطبيعة إلى ما بعد الطبيعة، وكان لا بد و للمعرفة تطورها وتدرجها من الطبيعة إلى ما بعد الطبيعة أن تتفرع جوانبها فتنوع موضوعاتها" ².

4) بين المعرفة عند ابن طفيل و ديكارت :

لا بد لنا أن نقارن بين الالتقاءات العجيبة بين المعرفة عند ابن طفيل وبين المعرفة عند ديكارت فالقواعد الديكارتية الأربعة في المنهج، نجد ملامحها في المباحث التي يقوم بها حي. فالقواعد الديكارتية الأربعة هي اليقين، وخلاصتها تجنب التهور والسبق إلى الحكم قبل النظر، قاعدة التحليل، وقوامها تقسيم المشكلة التي تُدرس إلى أجزاء بسيطة قدر الحاجة وقاعدة التركيب والهدف منها التدرج في المعرفة من البسيط إلى المركب، ومن ثم قاعدة

¹ الأبعاد الفلسفية لقصة حي بن يقظان ، أنور أبو بندورة م س ص 7.

² نفسه ص 7.

الإحصاء أو التحقيق ومفادها القيام بإحصاءات كاملة ومراجعة شاملة للتحقيق من أن الباحث لم يغفل شيئاً¹.

(5) التربية في قصة حي بن يقظان

إن أول ما يُلفت النظر في تربية حي بن يقظان هو ذلك الحنان الذي تُضيفه الطبيعة على ربيها حي لم يترك ذلك الحنان أمر ترك الطفل ينشأ تنشئة طبيعية بحيث تنمو شخصيته بحريته دون أن تفارقه مربيته الطبيعية. وبعد موتها نجد حي بن يقظان إنساناً يعيش بعيداً عن المجتمع البشري يسعى إلى المعرفة ويكتسبها متطوراً بكل الأساليب المذكورة أعلاه.

أما الأخلاق في قصة حي بن يقظان فهي تتجلى حيناً في " موقف نفسي عاطفي يظهر مثلاً في تلك المحبة، وذلك العرفان بالجميل من حي نحو الطبيعة التي ربته من خلال مساعدتها وإطعامها وجلب الثمار لها عند عجزها. كما نرى الأخلاق تتجلى حيناً في موقف من النمط الاجتماعي المدني - رغم عدم وجود مجتمع أو مدنية بمساعدته كل الحيوانات أو الطيور التي تعاني من عاهة ما أن يساعدها، برفعها أو اقتلاع شوكة ضارة.. ويصل الموقف الاجتماعي المدني لدى حي على المستوى الطهارة وإزالة الدنس والرجس عن جسمه والاعتسال بالماء في أكثر الأوقات، وتنظيف ما كان من أظافره وأسنانه وبواطن بدنه، وتطبيبها بما أمكنه من طيب النبات وصنوف الدهون العطرة²

(6) حي بن يقظان من الطبيعة.. إلى المعارف إلى علومها

وصيغة هذه المعارف تحت اسم علوماً طبيعية حي هي أول ما وصل إليه حي بن يقظان، وقد باشر بعلم الحيوان والطب إذ قام بتشريح الطبيعة وتعرف إلى أعضائها الداخلية عضواً عضواً ودقق في أوصافها ووظائفها، ومن ذلك ينتقل إلى النبات والتربة والماء والبخار والدخان والمعادن وأصناف الحجارة وغيرها .

¹ الأبعاد الفلسفية لقصة حي بن يقظان ، أنور أبو بندورة م س ص 8 .

² نفسه ص9.

وبالنسبة إلى صفات الأجسام وخواصها نجد حياً يكتشف الأحجام في الأجسام، وإلى الحرارة والبرودة وتحولاتها ونحو ذلك من الاختلافات. ويبدو أن حياً اكتشف الجاذبية وأثرها على الأجسام من حيث ثقلها.

ومن بين الأسباب التي كانت السبب في تعرف "حي" إلى الأعضاء ودراسة وظائفها هي التشريح . فإذا بقصة حي بن يقظان كانت عبارة عن ما يشبه دروساً ابتدائية في التشريح وأصوله. ثم ينتقل حي من وصف الأعضاء ووظائفها وسيما القلب إلى التعرف إلى الحواس وميزاتها، ويلاحظ حي بن يقظان دقة الحواس بالدماغ والأعصاب.

(7) "حي بن يقظان" الانتقال من الهندسة إلى الفلك:

إذا كان حي بن يقظان عندما أثبت بطلان لانهاية الجسد بنموذج هندسي، فما كان بذلك يسلك مسلك العالم التجريبي؟، أم مسلك الفيلسوف العقلي؟

وأبعد من ذلك، أكان ابن طفيل في معرض ذلك يأخذ بالهندسة الإقليدية أم يذهب إلى أبعد من ذلك؟

الجواب على السؤال يعود للاختصاصيين في الرياضيات، لذلك نقف عند حدود عرض النموذج من خلال ما قاله "هانز راينباخ" * في كتابه "نشأة الفلسفة العملية".

" يستنتج راينباخ أن الطابع الفلسفي للهندسة ينعكس في كل الأوقات على الاتجاه الأساسي للفلسفة، وبذلك كان التطور التاريخي للهندسة ينعكس في كل الأوقات على الاتجاه الأساسي للفلسفة. وبذلك كان للتطور التاريخي للهندسة تأثير قوي في تطور الفلسفة. فالمذهب العقلي الفلسفي، من أفلاطون إلى كانت، كله قد أكد ضرورة بناء كل معرفة على نموذج الهندسة. وكان الفيلسوف العقلي قد بنى حجته على تفسير للهندسة، ظل بمنأى عن

* هانز راينباخ 1891-1953 أحد أبرز علماء مدرسة برلين، وأحد أهم علماء المنطقية التجريبية التي قدمت نقداً للفلسفة التأملية وشكلت خطأ مهماً في تاريخ الفلسفة.

الشك طوال ما يربو على ألفي عام. هذا التفسير هو القائل أن الهندسة نتاج للعقل، بعين العالم الفيزيائي. وعبثاً حاول الفلاسفة التجريبيون أن يكافحوا ضد منطقة ميئوساً منها. غير أن الآلية انعكست بعد كشف الهندسة للأقليدية. فقد اكتشف الرياضي أن ما كان يستطيع إثباته لا يتعدى أن يكون نسق علاقات نسق اللزوم الرياضية، أي علاقات "إذا كان.. فإن" التي تؤدي من البديهيات إلى النظريات الهندسية. ولم يعد يرى أن من حقه تأكيد الحجة بالبديهيات، وترك كهمة إصدار هذا التأكيد للفيزيائي¹.

" وهكذا أصبحت الهندسة الرياضية حجة حقيقية تحليلية، واستسلم الجزء التركيبي من الهندسة للعلم التجريبي، وفقد الفيلسوف العقلي أقوى حليف له، وأصبح الطريق خالياً للتجريبي. ولو كانت هذه التطورات الرياضية قد حدثت قبل حدوثها بألفي عام لاختلفت صورة تاريخ الفلسفة، فمنه لا خلاف على أن ابن طفيل قد جعل حي بن يقظان يعتمد الرياضيات ليتأكد من نظرياته الفلسفية، ذلك أن حياً بعد أن ينتهي إلى هذه المعرفة "تفكر في العالم بجملته، هل هو شيء حدث بعد أن لم يكن، وخرج إلى الوجود من العدم؟ أو هو أمر كان موجوداً فيما سلف، ولم يسبقه العدم إلى بوجه من الوجوه". في هذه العبارة يلمح ابن طفيل إلى المبدأ المشهور الذي أثبته لافوازييه* بعده بستة قرون عندما قال: "لا شيء ينعدم في الصدفة ولا شيء يُخلق من العدم، كل شيء يتحول ويتبدل"².

8) حي يخرج إلى ما وراء الطبيعة

نلاحظ أن اهتمام ابن طفيل بالعالم الطبيعي عظيماً جداً، فقبل أن يطرح حي بن يقظان مسألة قدم العالم، نجده يمرر مبادئ فلكية وكوسموغرافية مختلطة بالجغرافيا. لكن قصد تأليف حي بن يقظان للبحث عن عالم ما وراء الطبيعة في الدرجة الأولى. و قد أراد من

¹ الأبعاد الفلسفية لقصة حي بن يقظان، أنور أبو بندورة م س ص ص.ص 11.09
* أنطوان-لوران دُ لافوازييه عاش ما بين 26 أغسطس 1743 - 8 مايو 1794م، أحد النبلاء الفرنسيين نو صيت في تاريخ الكيمياء والتمويل والأحياء والاقتصاد. أول من صاغ قانون حفظ المادة، وتعزف على الأوكسجين وقام بتسميته، وفنّد نظرية الفلوجستون، وساعد في تشكيل نظام التسمية الكيميائي

² نفسه ص 12.

خلال تناوله عالم ما وراء الطبيعة كشف الوصول إلى "الحكمة المشرقية" التي ذكرها ابن سينا، كما أكد ذلك ابن طفيل نفسه في مطلع قصة حي بن يقظان، باعتبار أن الحكمة المشرقية على ما يبدو من رأيه هي قمة المعرفة الإنسانية يتناول ما وراء الطبيعة الوجود الطبيعي في ماهيته الأولى التي لم يتح للوجود الإنساني معاصرة أو مشاهدة نشوء هذه الماهية، ولم يكن للعقل البشري المجال للإحاطة بمدى هذه الماهية ولتاريخ نشوء الوجود الطبيعي لا بد من اعتماد المقياس التقليدي ونقصد بذلك الزمن. وفي رسالة حي بن يقظان لا يُجَزَم ما إذا كان الزمن سابقاً لوجود العالم أم لاحقاً به، ولكن يبدو إن المشكلة الأساسية في نظر ابن طفيل ليست هي اعتقاد حدوث العالم أو اعتقاد قدمه، وإنما هي فيما ينشأ عن كل من الاثنين، وهو يرى ابن طفيل أنه سواء اختلف اعتقادنا حول قُدم العالم أو حدوثه، فإن النتائج عن ذلك واحد، وهو أن هذا العالم لم يأتي من العدم إنما لا بد من موجد أو محرك، وعلى كل فإن نشوء وتحقق الوجود يمر عند ابن طفيل بمراحل ثلاث هي:

- أ- **الهيولي:** ومن المعروف أن الهيولي شبيهة بالعدم فهي خالية من الحياة مجردة من الماضي المادي وتتنفي منها الصورة
- ب- **العناصر الأربعة:** وهي الماء والهواء والتراب والنار، وهي المظاهر الطبيعية الأولى أو أولى مراتب الوجود، فقد تبين لحي أن جميع الأجسام التي في عالم الكون منها ما تتقوم حقيقتها بصورة واحدة زائدة على معنى الجسمية، وهذه هي العناصر الأربعة.
- ت- **الصور:** ومنها تتقوم حقيقتها بأكثر من ذلك كالحيوان والنبات. فما كان قوام حقيقته بصور أقل، كانت أفعاله أقل، وبعده عن الحياة أكثر، فإن عدم الصورة محله لم يكن فيه إلى الحياة طريق، وصار في حال شبيهة بالعدم، وما كان قوام حقيقته بصور أكثر، كانت أفعاله أكثر، ودخوله في حال الحياة أبلغ. وإن كانت تلك الصور بحيث¹ لا سبيل إلى مفارقتها لمادتها التي اختصت بها كانت الحياة حينئذ في غاية الظهور والدوام والقوة².

¹ الأبعاد الفلسفية في قصة حي بن يقظان، أنور أبو بندورة م س نفسه ص 13.

² نفسه ص ص 13، 14.

تعقيب:

إن الغاية الرئيسية التي استهدفها ابن طفيل هي بيان اتفاق العقل والنقل ، أي اتفاق الدين والفلسفة . وحي بن يقظان هو رمز لعقل، الإنساني المتحرر من كل معرفة سابقة ومع ذلك يهتدي إلى نفس الحقائق التي أتى بها الدين الإسلامي ، فالدين حق ، والحق لا يتعدد ولهذا اتفق الدين والفلسفة .

أما أبسال فهو رمز لرجل الدين المتعمق المتأول الغواص على المعاني الروحانية وسلامان رمز لرجل الدين المتعلق بالظاهر ، المتجنب للتأويل المتوقف عند الأعمال الظاهرة والمعاني القريبة ، أما الجمهور فلا يعي إلا الظاهر والحرفي ولا يدرك من معاني الدين شيئاً.

وواضح من هذا أن ابن طفيل يرتب الناس هذه المراتب الأربع فاعلاها مرتبة الفيلسوف ويتلوها مرتبة عالم الدين البصير بالمعاني الروحانية ، أي الصوفي ، ويتلوها مرتبة رجل الدين المتعلق بالظاهر وهو الفقيه ، وأدناها مرتبة الجمهور من الناس¹.

¹ عبد الرحمان بدوي حي بن يقظان لابن طفيل ، الهيئة المصرية العامة للكتاب 4932-1995 د ط ، ص 31.